كتب بالعبرية

"الكارثة الآتية من بعيد": مواقف شخصيات مرموقة في اليشوف اليهودي في أرض إسرائيل من النازية والمحرقة، ١٩٣٣ – ١٩٤٨

تحرير دينا بورات

القدس: منشورات ياد يتسحاق بن تسفي، ٢٠٠٩. ٥٥٢ صفحة.

يحتل موضوع الإبادة الجماعية التي تعرض لها يهود أوروبا على أيدي النازيين خلال الحرب العالمية الثانية مكاناً مهماً في تاريخ الحركة الصهيونية وفي نشأة دولة إسرائيل. فالمحرقة كانت بين الأسباب التي دفعت دول العالم إلى الإسراع في الموافقة على قرار تقسيم فلسطين، وإلى الاعتراف بإسرائيل وطناً قومياً لليهود. يومذاك لم تعبأ دول العالم بالثمن الباهظ الذي دفعته شعوب المنطقة، وخصوصاً الفلسطينيين، جرّاء قيام إسرائيل على أرضهم، وتجريدهم من حقوقهم وتحويلهم إلى لاجئين، على الرغم من أن هذه الشعوب لم يكن لها أي دور في الكارثة التي لحقت بيهود أوروبا، ولا بصعود النازية في ألمانيا، ولا بعمليات مطاردة اليهود وقمعهم، ولا بموجات العداء للسامية التي انتشرت كالنار في هشيم المجتمعات الأوروبية، وكانت سبباً مهماً في تدمير الوجود اليهودي هناك.

وقد استغلت إسرائيل منذ نشوئها، الإحساس بالذنب من أجل ابتزاز الغرب للتعويض عن الكارثة النازية، بدءاً من حصول الدولة العبرية على تعويضات سخية من ألمانيا، استمر تدفقها على إسرائيل حتى وقت قريب، وصولاً إلى استغلال سلاح العداء للسامية لمحاربة أي طرف ينتقد إسرائيل، أو يقف موقفاً مخالفاً لموقفها، علاوة على اعتبار كل من ينكر المحرقة أو يشكك فيها أو يعترض على الاستغلال الإسرائيلي لها معادياً للسامية.

في هذا السياق يبدو كتاب "الكارثة الآتية من بعيد" محطة مهمة في التاريخ اليهودي للمواقف اليهودية من المحرقة النازية. فهو بين الكتب القليلة التي أماطت اللثام عن موضوع ظل لأعوام طويلة طي الكتمان، وهو موقف اليشوف اليهودي في فلسطين خلال الأعوام التي سبقت نشوء إسرائيل، وتحديداً خلال الفترة ١٩٣٣ – ١٩٤٨، من موضوع الحركة النازية وسيطرتها على الحكم في ألمانيا، ومن موضوع المحرقة، وذلك في ظل الجدل غير العلني الذي دار بين زعماء اليشوف اليهودي آنذاك وعدم اتخاذهم مواقف صارمة تدين بصورة قاطعة ما حدث، وعدم تغييرهم سلم أولوياتهم لوضع إنقاذ اليهود في سلم أولويات اليشوف قبل أعمال بناء الدولة العبرية، وعدم بذلهم جهداً واضحاً ومنظماً في عمليات إنقاذ اليهود.

تقول دينا بورات في مقدمة الكتاب: "خلال فترة الحرب الثانية، برزت انتقادات قاسية ضد الزعامة السياسية لليشوف تتهمها بأنها لم تدرك ما يحدث في أوروبا، ولم تجند إمكانات اليشوف لإنقاذ اليهود هناك. كما وجهت انتقادات إلى القيادات الروحية والفكرية التي لم تستوعب ما حدث ولم تكتب عن

الأحداث بصورة واضحة. وحتى اليوم هناك من يطرح مثل هذه التساؤلات."

وتوضح بورات أن هدف الكتاب هو الرد على ثلاثة أسئلة أساسية: متى أدركت زعامة الييشوف ما يحدث في أوروبا؟ ومتى غيرت هذه الأحداث وتيرة الحياة العادية؟ وماذا فعلت هذه الزعامة أو كتبت رداً على ما كان يحدث؟

تضمن الكتاب ٢٢ بحثاً كتبها مختصون في التاريخ اليهودي، اعتماداً على عدد لا يحصى من المنشورات وعلى أرشيف واسع وبأكثر من لغة. وتوزعت هذه الأبحاث على أربعة فصول أساسية: الأول، خُصص لمواقف شعراء الييشوف وكتّابه من المحرقة؛ الثاني، لمواقف رجال الدين والحاخامين البارزين في تلك الحقبة؛ الثالث، لمواقف المثقفين والمفكرين والفلاسفة؛ الرابع، لرجال السياسة.

ويصور كل بحث من الأبحاث التي تضمنها الكتاب عالماً قائماً بذاته، من خلال النقل الأمين والدقيق للمواقف والكتابات والتصريحات لكل شخصية يهودية تناولها البحث. ومن أجل التعرف إلى عينة من هذا العمل سننقل مواقف أهم الروائيين الإسرائيليين وهم شموئيل عغنون، ورئيس الحكومة الإسرائيلية السابق مناحم بيغن، وأحد أكبر المفكرين اليهود مارتن بوبر.

لماذا لم يكتب الروائي عغنون عن المحرقة؟

من الأمثلة المثيرة للدهشة لموقف كتّاب الييشوف من موضوع المحرقة، هناك الروائي شموئيل يوسف عغنون (١٨٨٨ – ١٩٧٠) الحائز جائزة نوبل للآداب في سنة ١٩٦٦. فقد كانت الأعوام التي شهدت صعود الحزب النازي إلى السلطة في ألمانيا، هي الفترة الذهبية في الإنتاج الأدبي لعغنون الذي قام بنشر عدد كبير من الروايات والقصص والمقالات التي كان لها أثرها الكبير في بناء شهرته ككاتب. لكن المفارقة أن أياً من هذه المؤلفات لم يتضمن أي ذكر، ولو تلميحاً، عمّا كان يجري لليهود في ألمانيا وأوروبا. وعلى الرغم من أن صحيفتَي "هآرتس" و"دافار" حفلتا في تلك الفترة بالأخبار عمّا يتعرض له اليهود في أوروبا، فضلاً عن أن عغنون نفسه التقى يهوداً غادروا أوروبا، مثل مارتن بوبر وغيره ممّن عاشوا ولمسوا عن قرب ما يحدث لليهود على أيدي رجال النظام النازي، فإننا لا نجد أثراً لذلك في كتابات عغنون في تلك الفترة.

وتجدر الإشارة إلى أن الكاتب كان معنياً شخصياً بمصير اليهود في ألمانيا، فشقيق عغنون وأختاه كانوا يسكنون فيها مع عائلاتهم، وكان هؤلاء طلبوا من عغنون وزوجته مساعدتهم على الهجرة إلى فلسطين. وقد بذلت زوجة عغنون جهداً كبيراً في هذا المجال، وقدمت المساعدة إلى عديدين من أفراد العائلة من اللاجئين، كما أن بعضاً منهم سكن في بيت عغنون مدة طويلة، فضلاً عن أنه كانت تصل إلى الكاتب رسائل من معارف له في بولندا تصوّر ما يتعرض له اليهود هناك.

واستناداً إلى كاتب البحث، نتان ألترمان، فإن هذا لم يغير قيد أنملة من الروتين اليومي لحياة الكاتب، وإنما كان هناك توزيع للعمل بينه وبين زوجته، فقد انصرفت هي إلى الاهتمام بالعائلة ومشكلاتها بينما انصرف هو إلى العمل الأدبي.

وباختصار، فإن الأحداث التي كانت تدور في أوروبا، والتي كان عغنون على معرفة بها لم تغير أي شيء من روتين حياة الكاتب.

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل إن الغزو الألماني لغاليسيا، مسقط رأس الكاتب، لم يترك أثره أيضاً في كتابات عغنون، باستثناء إشارات قليلة تركها في هذا الشأن، ومنها رسالة إلى زوجته في آذار/مارس ١٩٤٠ جاء فيها: "أهجس في النهار والليل بالمصائب التي تحدث في العالم، وخصوصاً بمصيبة شقيقي."

ويقول واضع البحث عن عغنون: "لم تغير أعوام الحرب، ولا الأخبار التي بدأت ترد عن مصير يهود أوروبا، شيئاً من أسلوب حياة الكاتب الذي ظل يكرس أغلبية وقته للكتابة" (ص ٣٢). ويشير كاتب البحث إلى أن عغنون انضم إلى مجموعة من المثقفين، بينهم مارتن

بوبر، قامت بحملة في فلسطين والعالم لتنبيه الرأي العام إلى ما يجري لليهود، وللضغط على زعماء الييشوف لإعطاء الأولوية لإنقاذ يهود أوروبا، لكن مشاركته لم تستمر طويلاً واقتصرت على حضوره مؤتمراً واحداً عقدته المجموعة في سنة ١٩٤٤، ورفض خلاله الكلام.

واستناداً إلى ألترمان، فإن عغنون، بين ما نشره خلال الفترة ١٩٣٩ – ١٩٤٥، لم يكتب إلاّ قصة واحدة تضمنت كلاماً واضحاً عن المحرقة، وهي أقصوصة "العلامة" [هاسيمان بالعبرية] التي نشرها في ربيع سنة ١٩٤٤، أي في أواخر الحرب، وكانت مؤلفة من ٣٣٧ كلمة، وتدور حول شخص يبكي على دمار مدينته. ويشير ألترمان إلى أقصوصة أُخرى تتحدث بصورة غير مباشرة عن المحرقة.

ويخلص ألترمان إلى القول إن المحرقة، على الرغم من التأثير الكبير الذي كان لها في حياة عغنون، فإنها لم "تشكل الموضوع الأساسي، ولا حتى الثانوي، في إنتاجه الأدبي. وكان رده على ما حدث في أوروبا غير مباشر ومجازياً وأحياناً غير واضح. وفي إمكاننا القول إن عغنون فشل في إنتاج غيرنيكا خاصة به على شاكلة اللوحة التي رسمها بيكاسو (١٩٣٧) [عن الحرب الأهلية في إسبانيا]، لكن ذلك لا يقلل من القيمة النوعية لبعض ما كتبه، ولا من أهميتها في التعبير عن رده على الأحداث" (ص ٤٦).

مناحم بيغن: الدولة الحرة أو الغيتو

ربما يكون مناحم بيغن (١٩١٣ – ١٩٩٢)، من أكثر الشخصيات السياسية في إسرائيل التي كان للمحرقة أثرها العميق والمستمر في حياته الشخصية والعامة. ويشير كاتب البحث عن بيغن، يشيام فايتس، إلى ثلاثة أسباب لذلك:

١ ـ كون بيغن الوحيد الذي هاجر إلى فلسطين من بولندا في ذروة الحرب العالمية الثانية؛ ٢ ـ اعتبار بيغن نفسه أحد الناجين من المحرقة النازية؛ ٣ ـ العلاقة الوثيقة لمنظمة "الإيتسل" التي تزعمها بيغن بالمحرقة. فالسبب الأساسي للثورة التي أعلنتها الإيتسل هو الاحتجاج على إغلاق أبواب الهجرة إلى فلسطين في ذروة أعمال المحرقة، وقد ترك هذا كله بصماته على حياة بيغن. فعدم مشاركته في المقاومة ضد الألمان جعله يشعر على الدوام بالذنب وهو الذي كان يحلم بالموت ميتة الأبطال.

كثيراً ما آمن بيغن بأن البريطانيين منعوا الهجرة إلى فلسطين عن قصد لتقليص عدد المهاجرين اليهود، وكانت "الإيتسل" تنظر إلى البريطانيين بصفتهم نازيين جدداً، أمّا قادة الييشوف المتعاونون معهم، فشُبِّهوا بالمتعاملين مع الاحتلال النازي، ومن هنا تشبيه حاييم وايزمان بالماريشال بيتان. واعتبرت حركة "الإيتسل" أن قرار تقسيم فلسطين يهدف إلى قيام دولة "الغيتو"، أي إسرائيل المحاطة من جميع الأنحاء بدول عربية معادية لها.

بعد نشوء دولة إسرائيل، استمر استخدام بيغن المصطلحات النازية، فكان يسمي السجون في إسرائيل "معسكرات التجميع"، وأكثر من مرة شبه ياسر عرفات بهتلر. وعندما أعلن بيغن بداية غزو إسرائيل للبنان في سنة ١٩٨٢، وقبل ساعات من بدء العملية العسكرية التي حملت اسم "سلامة الجليل"، قال: "أنتم تعرفون ماذا فعلت لأمنع الحرب والثكل، لكن هذا قدرنا في أرض إسرائيل، ولا مفر من القتال والتضحية. فالبديل من هذا هو تريبلنكا جديدة، ونحن قررنا ألاّ يحدث هذا مرة أُخرى" (ص ٣٧٣).

وقد رافق شبح المحرقة بيغن طوال حياته السياسية، فمنها استعار أوصافه ومخاوفه، وبواسطتها حارب أعداءه في الداخل والخارج. وهو بهذا المعنى يمثل النموذج الأقصى للاستخدام السياسي لموضوع المحرقة في الحياة السياسية الإسرائيلية. وفي رأي كاتب البحث فإن هذا ربما يعود بالدرجة الأولى إلى رغبة بيغن في التعويض عن عدم مشاركته الفعلية في مقاومة النازيين، وهذا الإحساس بالذنب لاحقه طوال أعوام حياته السياسية.

مواقف مارتن بوبر من النازية والعداء للسامية

من الفصول المهمة لهذا الكتاب، الفصل المخصص لدراسة مواقف الفيلسوف النمساوي من أصل يهودي مارتن بوبر (١٨٧٨ ـ ١٩٦٥) من النازية في ألمانيا، ومن موجات العداء للسامية وأعمال اضطهاد اليهود في ألمانيا.

وتختلف مقاربة بوبر لموضوع صعود النازية والعداء للسامية عن مقاربات غيره، فهو يحمّل الحكومة والحكم في ألمانيا لا الشعب الألماني المسؤولية عن أعمال الاضطهاد التي تعرض لها اليهود، ورأى أن "ملاحقة اليهود ومشاعر العداء تجاههم في ألمانيا تحت حكم هتلر، لم تأتيا نتيجة كراهية شعبية، أو حصيلة موجة جديدة من عداء للسامية، وليس الشعب الألماني هو المسؤول عن ذلك، وإنما الدولة: فالسياسة تجاه اليهود هي عمل سياسي، تتحمل المسؤولية عنه الدولة وقادتها والعاملون فيها" (ص ٣٠١).

ويعزو بوبر مشاركة الشعب الألماني في عمليات اضطهاد اليهود وملاحقتهم إلى إيمان هذا الشعب بأن قادتهم يمثلون إرادة الله، وأنهم مرسلون من السماء. ويعتبر اضطهاد اليهود "مرضاً أصاب الشعب الألماني، ولا يمكن تحميل الشعب المسؤولية عنه، وإنما الدولة."

وهو يذهب إلى أبعد من ذلك فيشير إلى أن بعض أسباب ملاحقة اليهود يعود إلى اليهود أنفسهم، وإلى الشعور بعدم الارتياح الذي كان يثيره اليهود الذين تبوأوا مناصب مالية واقتصادية مهمة داخل المجتمع، في أوساط الشعب الألماني الذي كان يعاني أزمة اقتصادية خانقة.

وقد فسر بوبر صعود النازية في ألمانيا بانتشار النزعة القومية النفعية، محذراً من الانعكاسات السلبية للفكر القومي، حتى بالنسبة إلى الحركة الصهيونية. وربط بين الأحداث التي شهدتها ألمانيا والأحداث التي كانت تعيشها أرض إسرائيل، ورأى أن تبنّي الحركة الصهيونية الفكر القومي هو في أساس المعاناة والغبن الموجودين في أرض إسرائيل.

ورأى بوبر أن أهم درس يمكن استخلاصه من المحرقة هو القيام بـ "ثورة فكرية" عبر التعليم اليهودي وعبر نظرة قومية حديثة، ودعا الصهيونية إلى تحديد السبيل الصحيح الواجب انتهاجه لتحقيق مشروعها، وإعادة ربط اليهود بالفروع الأساسية للاقتصاد مثل الزراعة والصناعة الثقيلة والعمل اليدوي. وانتقد بشدة تركيز الصهيونية على الدولة القومية في أرض إسرائيل، فالشعب اليهودي في رأيه هو مثل جميع الشعوب الأخرى، وأرض إسرائيل هي مثل جميع الدول الأخرى.

وكان بوبر صاحب نظرة خاصة إلى الصهيونية معروفة باسم "الفلسفة الإنسانية العبرية"، وهي نظرة تقوم على مقاربة تاريخية ـ لاهوتية ـ سياسية أساسها الارتباط بين الشعب والرب. كما تزعّم بوبر تيار "الاشتراكية الدينية"، وهو تيار برز في أعقاب الحرب العالمية الأولى ووقف ضد التمييز بين الأخلاق والسياسة، ودعا إلى الربط بين القيم والسياسة.

وتشكل مواقف مارتن بوبر من النازية والعداء للسامية، نموذجاً فريداً واستثنائياً في ليبراليتها ونقديتها، إذ إنه لم يتورع مثلاً عن إقامة رابط بين النازية كحركة قومية وبين الصهيونية السياسية، منتقداً سعي الصهيونية لإقامة دولة قومية يهودية. وكان يعتبر أن تحقيق ذلك سيؤدي إلى "تحقير اليهود"، وهو بهذا المعنى يشكل ظاهرة مميزة ومختلفة بين أقرانه.

من الصعب الإحاطة بكل ما اشتمل عليه الكتاب من أبحاث، لكن مجموع الجهد المبذول فيه وكمية المعلومات والمروحة الواسعة من الشخصيات التي تناولها، أمور تجعل الكتاب، وبالتأكيد، مصدراً أساسياً للتعرف عن كثب إلى الطريقة التي تعامل بها زعماء الييشوف اليهودي مع موضوع الكارثة النازية، وكيف انعكس ذلك على حياتهم وإنتاجهم ومواقفهم.

رندة حيدر
باحثة في الشؤون الإسرائيلية